

الأحمر والأسود لستندال

بمستلم
الأستاذ عبد الحميد الترابي

نشأته^(١):

كان ينتمي إلى أسرة متوسطة (برجوازية) أتيح لها قسط وافر من الثراء . غير أنه قد فطر منذ طفولته على كراهية كل من في بيت أبيه ، ولم يستثن منهم سوى أمه . شب فوجد أباه « شيروبان بيل » محامياً بخيلاً ، قبيح الوجه ، وخالته « سيرافي جانيون » قد بلغت من الكبر عتياً دون أن تزوج ، فعملت إلى الإفراط في العبادة فضاقت بها نفسه . وكانت أخته « زنائيد » كثيرة اللغو في حديثها ، لا تكاد تتحدث إليه حتى يعرض عنها . ولم تتكشف له فضائل أخته « بولين » إلا بعد سنوات طويلة من حياته .

أما أمه « هنريت جانيون » فكانت ملاذه في ذلك البيت سنوات طفولته . يصفها بأنها كانت جميلة نشيطة ، حاذقة عذبة الحديث ، ترجع إلى أصل إيطالي . ماتت في ريعان شبابها قبل أن تبلغ الثلاثين من عمرها ، فكانت فجيعته أليمة لأنه كان يعبدها عبادة العاشق لها على حد تعبيره . ومن المحتمل أن يكون هنري بيل قد وجد في جده الطبيب « هنري جانيون » بعض صفات أمه ، فكان يتردد عليه كثيراً ويفيد من آرائه وعاداته وظروف حياته ، كما تعلم كثيراً من مكتبته ، فاستطاع بذلك كله أن يتعرف على القرن الثامن عشر ويطلع على

ستندال اسم مستعار من بلدة ألمانية صغيرة ، تسمى به الكاتب الفرنسي الكبير هنري بيل Henri Beyle الذي أثار أدبه ضجة شديدة في القرن التاسع عشر ، لأنه أديب وهب قدرة كبيرة على ملاحظة ما كان يدور في عصره من أحداث شاهدها عن قرب فكشف لنا أسرارها في دقة شديدة لم تتح لغيره من أدباء القرن الماضي . كما عرف كيف يراقب الناس ويتغلغل ببراعة في خبايا نفوسهم ويطلع على أسرار قلوبهم فيصف لنا في صراحة ودقة عواطفهم وميولهم وغرائزهم وصراخهم النفسي في المواقف المختلفة التي تواجههم في حياتهم اليومية . فجاء أدبه مخالفاً لما تعارف عليه الناس في الدين والسياسة والأدب والفن .

ولد هنري بيل بمدينة جرينوبل ، قبيل الثورة الفرنسية وعاش في عصر حروب واضطرابات دائمة وثورات اجتماعية كبيرة لم تشغل فرنسا وحدها زمناً طويلاً ، وإنما امتد هذا الصراع العنيف إلى كثير من البلاد الأوروبية .

(١) ستندال (٢٣ من يناير ١٧٨٣ - ٢٢ من مارس ١٨٤٢) .

أحداثه ، وعلى الظروف التي مهدت للثورة الفرنسية سياسية كانت أو اجتماعية أو اقتصادية .

وأما خاله «رومان جانيون» فكان له أثر سيء عليه ، وهو لا يزال يافعاً : كان رومان يعد «دون جوان» المقاطعة كلها ، عرف بين مواطنيه بسلوكه الشائن ومبادئه التي تدعو إلى التهلكة الشديد والاستهتار التام بالقيم الخلقية وبالتقاليد البرجوازية المرعية في عصره .

تعلم هنري بيل في مدارس جرينوبل وتخرج في مدرسة السنترال بها بعد أن درس الرياضة والرسم . وكانت أسرته ترجو أن يصبح مهندساً ماهراً ، فأوفده أبوه إلى باريس عام ١٧٩٩ ليلم دراسته بها ، ورتب له نفقة شهرية قدرها خمسون ومائة فرنك ، فأقام بغرفة صغيرة على مقربة من «الأنفاليد» وحققت له إقامته بباريس ذلك الأمل الكبير الذي كان يستولى على نفسه ومشاعره ، كما حررته من نير أسرته التي شب فوجد نفسه يخالف آراءها واعتقاداتها وميولها : كانت أسرته ملكية النزعة وكان هو حراً نائراً على نظام الحكم الملكي عمره الفرح حين أعدم لويس السادس عشر ، وهو لا يزال في العاشرة من عمره ! ثم كانت أسرته كاثوليكية وكان هو يكره المذهب الكاثوليكي . كما أتاحت له إقامته بباريس التخلص من البيئة التي عاش فيها : كان يضيق ذرعاً بتفاهة أهل الريف ، ويقول صراحة إن جرينوبل تؤذيه أكبر الإيذاء وتؤلمه أشد الألم ، وإن أعجب على الرغم من هذا كله ببعض خصال مواطنيه كالخشية من الخديعة ، وعادة التأمل الباطني ، وهي صفات تملك بها طول حياته .

حياته في باريس :

لم يكديصل إلى باريس ، وهو لا يزال في السادسة عشرة من عمره ، حتى أسكره جو هذه المدينة الصاخبة وظن أنه أصبح حراً لا رقيب عليه ، فأعرض عن الدراسة

ولم يأبه بالمسابقات العلمية التي كان عليه أن يتقدم لها . ونعرف «بمارسيال داري» واتخذة أستاذاً له في الأبهة وازينة وحب الشهوات ، فتعلم منه ألواناً شتى من الحياة العابثة التي كان خاله رومان جانيون قد بذرها في نفسه وهو لا يزال صغيراً في جرينوبل .

نحدثنا عنه «بيل» في مذكراته فيقول : «إني مدين له بالقدر الضئيل الذي أعرفه في فن معاملة النساء !» غير أن السأم سرعان ما أمرضه ، فاعتلت صحته وغنى به في محنته أحد أقاربه ومواطنيه «نوييل داري» والد أستاذ الأبهة والزينة ، وسهرت عليه في مرضه «مدام داري» ترعاه في عطف وحب وحنان .

كان أبناء «داري» يبلغون أحد عشر ولداً ، منهم «بيير» الذي كان خيراً من أخيه : لأنه يتصف بالحزم الشديد في غير قسوة ، وحب العمل ، إذ كان يشغل وظيفة إدارية لها خطرها فقد كان المشرف الحقيقي على تمويل جيوش نابليون . وقد قرر بيير داري أن يبسط حمايته على «هنري بيل» بعد أن وجده قد فشل في حياته الدراسية ، فأسند إليه وظيفة أمين مساعد ، ثم استدعاه إلى إيطاليا . ومنذ ذلك الوقت أصبح هو الوجه الحقيقي لهذا الشاب بالقدر الذي يتقاده به هنري بيل إلى سواه من الناس في الحياة الجادة العاملة . وفي ٧ من مايو سنة ١٨٠٠ ، غادر هنري بيل باريس ليذهب إلى إيطاليا ، تلك الأرض الموعودة التي أحبا طوال حياته حباً جمّاً ، وأصبح جندياً في جيش نابليون في حصن «بارد» بجبال الألب . غير أنه ظل سادراً في غيه وحبوه ولهو يطارد غادته الفاتنة «أنجيلا بيتراجروا» فامندت إليه يد بيير داري في حزم لتنتزعه من حياة الفراغ ، وليصبح ملازماً في فرقة الحياالة .

وبالرغم من أن بيل كان قد سمع مدافع «مارنجو» وحارب «في كاسل فرنكو» واشترك في معركة مانتو ، إلا أنه سرعان ما زهد في الجيش ، فاستقال من منصبه وعاد إلى باريس عن طريق جرينوبل .

ذرعاً بها وبمرسلييا بعد عامين ، كما زهد من قبل في صديقاته وفي بلده جرينوبل . لقد ترك إذن تجارته وخليته ليعود إلى باريس ، سعيداً بالعودة لها .

مع نابليون في حروبه

أصبح هنري بيل منذ سنة ١٨٠٦ مرتبطاً ارتباطاً شديداً بحروب نابليون ، فقد حصل له من جديد صديقه « بيير داري » على وظيفة بالمكاتب الحربية . قضى تلك الفترة في ألمانيا فعاش عامين في برونزفيلك ، وأخذ يدرس ألمانيا وأخلاق الألمان وعاداتهم ، بينما كانت « مدام دي ستايل » تستعد لتقديم دراستها عن ألمانيا إلى مواطنيها الفرنسيين . اكتشف ستندال طيبة الألمان ونقاء سرائرهم ، وأحب في الألمانيات جمال وجوههن ، على عادته في وله بجمال المرأة أنى كانت ! غير أنه لم ينتبه إلى قوة الفردية في الألمان حين وصفهم بالرخاوة .

وفي مارس سنة ١٨٠٩ ، أقام مدة قصيرة بباريس ثم غادرها إلى استراسبورج ومر بأنجولشتادت ولندشوت ووجرام ، ثم أقام بفينا زمناً قليلاً بالرغم من حبه لها ، لأنه أراد الذهاب إلى أسبانيا فطلب أن يسند إليه منصب بها ولكنه لم يجب إلى طلبه . وعاد من جديد إلى باريس حيث عين في أغسطس سنة ١٨١٠ في وظيفة بمجلس الدولة . وعلى هذا أصبح هنري بيل شخصية لها قيمتها وخطرها ، فقد تقلد بعد ذلك مناصب كبيرة درت عليه أموالا كثيرة . وأخذ يحيا تلك الحياة السهلة التي تنفق وميوله . وكثيراً ما كان يغادر باريس ليقضي أياماً في ضواحيها ، وقد تمتد به رحلاته فيصل إلى شاطئ البحر وهو يعرف كيف يحب البحر ، فقد قال في كتابه : « مذكرات سائح » : « إن الإقامة على شاطئ البحر تقضى على الصغائر ، والحديث إلى بحار يعود من رحلة هو عندي أكثر فطنة من الحديث إلى كاتب عقود مدينة بوردج ! » .

ونحن الآن في عام ١٨٠٢ ، وها هو ذا بيل يعيش في باريس متعطلاً ، لا يجد عملاً يدر عليه مالا ، فعمد إلى هوايته الأدبية التي ملكت عليه نفسه عله يجد في التأليف المسرحي مصدراً للرزق ، أخذ في تلك الفترة يكتب مسرحيات لا يعرف كيف يبدوها ، وقصصاً هزلية لا يدرى كيف يختتمها ! وصار يتردد على المسرح ، لا يكاد ينقطع عنه بفضل تشجيع صديقه وأستاذه في الزينة والشهوات مارسيل داري . وكان بيل كبير الفطنة ، يتمتع بشباب زاهر بالقوة والحيوية والجمال ، فأصبح محبوباً في هذا الوسط كما كان محبوباً في إيطاليا في السنوات الماضية وكثيراً ما كان يشبه بالأسد لطول قامته وغزارة شعره المحمد ونظراته النارية وفتوته ، كما كان حريصاً أشد الحرص على التأنيق الشديد في ملبسه .

لم يسعفه المسرح بالمال ولكنه أمدّه بحياة عاطفية قوية تنطوي على اللذة والمغامرة والحب والعبث . أنساه المسرح مؤقتاً غادته الإيطالية « أنجيلا بيتراجروا » ليولع بحب فتاة أخرى كانت تتعلم تمثيل المآسي ، تسمت في المسرح باسم « لوازون » واسمها الحقيقي « ميلاني جلير » . استخدمت معه سلاحاً ماضياً : نفرت من هذا القاتن الجميل ، فراد تعلقه بها حتى استطاعت أن تقتاده معها إلى مرسيليا ، حيث وجدت فيها عملاً يكفل لها الرزق . توقف في جرينوبل وهو في طريقه إلى مرسيليا ليطلب من والده مالا إلا أنه آب بالفشل حين رفض أبوه أن يمدّه بالمال . عزم على الانتحار ، ولكن كل ما فعله هو أن سأل عن السم ثم لحق بحبيته في مرسيليا . واضطر بيل بدوره إلى أن يبحث عن عمل يسد نفقاته الكثيرة . لأن المرتب الشهري الذي كان يرسله له أبوه وقدره مائتا فرنك زيدت إلى ثلاثمائة فرنك ، كان ينفق من غير حساب ، فاشتغل بالتجارة ، ويا له من عمل يأباه طبعه فكانت تجارته خاسرة ! وبالرغم من قلبه الموله بحب « ميلاني » ، فقد ضاق

ثم كلف وقتذاك بمهمة رسمية في روسيا ،
فصحب جيش نابليون إلى «ولنا» ودخل معه سمولنسك
وموسكو ، ثم رافقه في تفهقره ، وذهب إلى بريزينا
وعبر كونجسبرج ودانزج وبرونسويك وكاسل
وفرנקفورت وماينس .

بعد هذه الرحلة الطويلة الشاقة ، عاد إلى باريس
في ٣١ من يناير سنة ١٨١٣ ، وظل يترقب منصباً
جديداً ، طامعاً في أن يعين حاكماً لإحدى الولايات ،
غير أنه لم ينل ما كان يصبو إليه . فعاد إلى ألمانيا
واشترك في حملة ساكس اشتراكاً فعلياً ، في تلك
المعركة المفاجئة معركة «نييدر ماركرسدورف» . ولقى
الإمبراطور بوناپرت بعد ذلك بأيام في «جور ليتز»
ليحدث إليه في شأن تلك المعركة . ثم أصبح رئيساً
لقسم «لاتور موبور» فاستولى عليه السأم وأصيب
بحمى عصبية «سافر على أثرها إلى إيطاليا يطلب فيها
الشفاء والراحة في ميلانو واللهو مع صديقه «بيتراجروا»

وقد امتدت إقامته بها كل أيام خريف سنة ١٨١٣
إلى أن اضطره غزو فرنسا إلى العودة إلى وطنه ، فعين
في الفرقة السابعة لينظم حركة المقاومة في مقاطعة
«دوفيني» ، حيث أظهر نشاطاً كبيراً ودل على وطنية
شديدة لم يكن يتوقعها أحد من هذا الرجل الذي عاش
في البلاد الأجنبية أكثر مما عاش في فرنسا ! إلا أن
الحمى عاودته وحز في نفسه ما كان يلقاه من حقد أهل
«جرينوبل» عليه ، فقد أغضبهم منه توقيعه «دى بيل»
على النداءات والإعلانات العسكرية ، التي كان
يصدرها لسكان المقاطعة ، وهو لا يمت إلى طبقة
الأشراف بأي سبب ! عين آخر محله في عمله وارتحل
هو إلى باريس ، حيث وافق على قرارات مجلس
الشيوخ بخلع نابليون ، منضماً في ذلك إلى البربون يحذوه
أمل كبير في أن يعين في قنصلية نابولي ، ولكنه كان
أملاً ضائعاً !

ولإزاء تلك الحيرة ، عاد إلى ميلانو وإلى صديقه
الميلانية . وقد احتجزته إيطاليا هذه المرة مدة طويلة ،
فقد بقي بها من سنة ١٨١٤ - ١٨٢١ . وكان غاضباً
أشد الغضب على البربون ، قاسياً عليهم قسوة شديدة
بقدر ما كان يعتمل في نفسه من حق لمخالفته عقيدته
السياسية حين ساير البربون في الخروج على نابليون ،
ولم ينل ما كان يتوقعه من جزاء مادي يتيح له أن يحيا
الحياة التي ترضيها نفسه !

حياته في إيطاليا

ظل ستندال مقياً بميلانو ، تلك المدينة المحبة إلى
نفسه ، القريبة إلى قلبه يتردد كعادته على مسرح
«اسكالا» تردداً غير منقطع ، ويلقى فيها أصدقاءه ،
«مونسنبور دى برم» الذي كان يسر بأحاديثه والشاعر
مونتي الذي كان يعده أكبر شاعر على قيد الحياة في
عصره ، ثم اتصل «بسلفيو بليكو» الذي دفع غالباً
ثمن انتمائه لحركة الكربوناري .

أحب ستندال إيطاليا لما كانت تتصف به من
حيوية ونشاط ، فهي على حد تعبيره : «بلد السرور
واللذة والفن والفراغ ، لقد أخذت تنزع عنها نير
الاستبداد وتوطد في أرضها حقوق الخيال والهوى» .
ومع أن ستندال كان سائحاً لا يمل التنقل من بلد إلى
بلد ، فكلم تحدث عن حبه لأي بلد حل به ، ولكن
إيطاليا وحدها هي التي سيطرت على نفسه وعواطفه ،
فاذا ما بعد عنها نسب إليها كل ما هو جميل رائع :
مر ستندال في إحدى رحلاته الكثيرة ببلدة لاندشوت
فكتب يقول : «كان لهذه البلدة نفس الأثر الذي
تحدثه إيطاليا ، فقد رأيت في نصف ساعة خسة وجوه
نسائية ، بيضاوية الشكل ، رائعة الجمال ، لا تمت إلى
ألمانيا بأية صلة !» :

ونقرأ في كتابه : «روما ، نابولي وفلورنسا»
العبرة التالية : «إنني حين أجلس إلى الميلانيين وأتكلم

لغتهم . أنسى أن الرجال قد فطروا على الشر وتتبدد من نفسى فى الحال كل إمارات السوء» . إنها لعبارة واضحة دقيقة ، ولكنها لا تنطوى على الكثير من الصدق ! فهى نزعة من نزعات ستندال ، مثلها مثل تلك الرغبة التى أبدأها عام ١٨٢٠ فى أن يدفن فى ميلانو وتكتب على قبره تلك الكلمات : Arrigo Beyle : Milanese (قبر بيل الميلانى) .

عودة إلى باريس

ثم اضطر ستندال إلى مغادرة إيطاليا عام ١٨٢١ لأن النمساويين أخذوا يعتقدون أنه من أنصار حركة الكربونارى ، واتهمه الإيطاليون بأنه مناصر للألمان ! كان ستندال يؤمن بأن فن الحب لا يوجد إلا فى إيطاليا ، أما فن الحديث فهو فن باريسى خالص ! ولذلك كان يحب لقاء الأصدقاء الأذكياء ويتحدث إليهم : كان يلقى فى باريس نخبة كبيرة من الأدباء ورجال السياسة والصحفيين منهم « بروسبير ميريمى » وسانت بييف وأمبير ورومان كولومب الذى كان شديد الإخلاص لستندال محباً له ، لا يرضن عليه بشيء حتى بالمال ! كما كان كثير التردد على الصالونات الأدبية والسياسية لدى مدام باسطا ومدام أوبرنون ومدام أنسلو . على أن خير وقت كان يقضيه فى باريس هو ذلك الوقت الذى كان يلقى فيه دليكلز ناقد مجلة « ديبا » بعد ظهر أيام الأحد من كل أسبوع ، حيث كان يلتقى بكبار الصحفيين الباريسيين أمثال : دييوا وكورييه وستيفير . وقد عرف فى هذه الأوساط بالذكاء والفطنة والدعابة .

كان حينها يمل هذه الحياة الباريسية ، يعبر المانش ليستمع إلى المغنى « كين » ويعجب بالريف الإنجليزى ، أو يحاول الذهاب إلى إيطاليا ليقم فى ميلانو العزيزة عليه ، المحببة إلى نفسه ، وإن ظل رجال الشرطة من النمساويين له دائماً بالمرصاد ، فقد أبعده عن إيطاليا

فى أول يناير سنة ١٨٢٨ يوم وصوله إليها لثمرة الخامسة . وكانت رحلاته ولهوه وافراطه فى التألق قد أثت على ما كان بين يديه من مال ، وكاد البربون يستغنون عن خدماته . ومعاشه وقتذاك لا يتجاوز خمسمائة وألفاً من الفرنكات ، ولم يعد ستندال يأمل أن يعيش من قلمه ! اقترض المال حتى أثقلته الديون ، ولقى فى حياته عسراً شديداً بجانب ما كان يلقاه من آلام أخرى معنوية وبدنية . تراكت عليه كل تلك الصعاب فعزم على قتل نفسه وكتب وصية فى ليلة ٦ من ديسمبر سنة ١٨٢٨ ، وكان قد كتب قبلها وصايا كثيرة ! غير أن تضرعات صديقه الوفى كولومب والمبلغ الذى حصل عليه من كتابه « نزعات فى روما » وقدره خمسمائة وألف من الفرنكات ، كل هذا قد جدد فى نفسه حب الحياة ؛ فاستدعته إيطاليا مرة أخرى . وكاد يذهب إليها فى مهمة رسمية بعد موت البابا « ليلان الثانى عشر » ليساعد على أن ينتخب الكردينال « جريجوريون » أحد أنصار البربون . وكان « شاتوبريان » فى ذلك الوقت سفيراً فى روما ، وكاد ستندال يعمل مساعداً لهذا الذى كان يطلق عليه فى سخرية شديدة : « إمام البوذيين الكبير ! » .

وأخيراً ظل مقبلاً بباريس . على أن سأمه لم يدم طويلاً ، فتلك المهمة التى لم تتحقق جعلت منه سياسياً ، وعين قنصلاً لفرنسا فى تريستا فى شهر أغسطس سنة ١٨٣٠ ، فسارع إلى تسلم منصبه الجديد ، دون أن يحفل بقصته التى أعطاها للناس وهى « الأحمر والأسود » غير أنه لم يكد يستقر فى تريستا حتى رفض « مترنخ » الموافقة على إقامته بها ، لأنه كان قد نخر من النمسا فى كتابه « روما ونابولى وفلورنسا » .

منصب سياسى فى إيطاليا

ضاق مترنخ ذرعاً بستندال فلم يوافق على تعيينه قنصلاً بتريستا ، ولكن رحمة البابا وسعته ، فعين

مضطربة ، حياة رجل كامل الرجولة ، حياة سائح يحب التنقل دائماً ، لا حياة مؤلف طابعها الهدوء والاستقرار . وهذا هو السر في أن أدبه لم يكن معروفاً تماماً من معاصريه وأن كتبه على كثرتها لم تكن ذاتة في عصره ، وأن ما رمى به من شذوذ لم يفهم على حقيقته إلا بعد أن مضى أكثر من نصف قرن على وفاته ! وقد تنبأ هو بذلك قبل أن يغادر الحياة الدنيا ، حين قال : « لن أعرف إلا بعد مائة عام ! » .

مؤلفاته

أحب هنري بيل الأدب حباً أملاً عليه ذوقه وفراغه ، كما فرضته عليه طبيعته وميوله . نشر أول كتاب له وهو : « حياة هايدن وموزار وميتاستاز »^(١) سنة ١٨١٤ .

“Vies de Haydn, Mozart et Métastase”

وهو كتاب ليس له فضل كبير فيه ، لأنه كان مقتبساً من كتب غيره من المؤلفين ، إلا أنه مع ذلك

(١) هايدن : فرانس جوزيف هايدن ، مؤلف موسيقى نمساوي (١٧٣٢ - ١٨٠٩) .
ألف سيمفونيات رائعة بما فطر عليه من خيال غزير ، وعرف بمقطوعاته العذبة : « الخلق » و « الفصول » . ويرجع إليه الفضل في وضع قواعد السيمفونية الكلاسيكية في أسلوب طابعه الاتزان والظرف والدعابة . كما ألف رباعيات وثلاثيات موسيقية كان لها أثرها في التطور الموسيقي .
موزار : ولف جانج أماديز موزار ، نابغة من نواين الموسيقى (١٧٥٦ - ١٧٩١) .

ولد بسالزبورج بالنمسا . خلال حياته القصيرة الحاطفة ألف روائع موسيقية مسرحية منها : « زواج فيجارو » و « دون جوان » و « الناي الساحر » وغيرها . وله سيمفونيات ذات أثر كبير في عالم الموسيقى . كما ألف الكثير من الموسيقى الدينية والأنغام الهادئة والثلاثيات الموسيقية للمعزف . ويعتبر موزار أستاذاً من أساتذة النغم ، يعتمد في موسيقاه على الوضوح والبهجة ويصل إلى القمة من خلال بساطة أسلوبه وظرفه .

ميتاستاز : بيتر ميتاستاز ، شاعر إيطالي (١٦٩٨ - ١٧٨٢) ولد في أسيزا ، وألف مسرحيات موسيقية يمتاز أسلوبها بالسهولة والانسجام .

قنصلاً « بسفيتا فيشيا » داخل مملكته . وفرضت عليه الإقامة في تلك المقبرة القديمة التي تنتشر فيها الملاريا ، فشتان بينها وبين المدن الإيطالية الأخرى التي أحبها حباً جمّاً مثل ميلانو ونابولي وفلورنسا وروما ! وكره سكرتيره في القنصلية « لزيماك تافرنيه » لأنه كان يتصف بالخسة في خلقه وعمله على السواء . ولهذا كان ستندال ينتهز كل فرصة ليغادر مقر عمله ويفر إلى انكون أو روما أو باريس التي ذهب إليها أول مرة سنة ١٨٣٣ وظل مقياً بها أربعة شهور بعيداً عن وظيفته السياسية في المملكة البابوية .

ثم أتاحت له فرصة بعد ذلك ليجدد عطلته فبقى مقياً بالعاصمة الفرنسية أكثر من ثلاثة أعوام ، من مايو سنة ١٨٣٦ إلى يونيو ١٨٣٩ .

نهاية حياة عاصفة

عاد من باريس ليقم بإيطاليا أكثر من عامين آخرين من أغسطس سنة ١٨٣٩ إلى نوفمبر سنة ١٨٤١ . ثم عاد من جديد إلى باريس وقد تهدمت صحته وضعفت قواه تماماً من آثار الروماتزم والملاريا ومن مضايقات « تافارنييه » ومكايده ، عاد إليها ليموت بها في ٢٢ من مارس سنة ١٨٤٢ إذ أصيب بهبوط مفاجئ في قلبه وهو يسير في أحد شوارعها ، ولكنه ظل على قيد الحياة حتى اليوم التالي ، وعنى به صديقه الوفي كولومب . ولم يشيع جثمانه حتى مقبرة مونمارتر سوى ثلاثة أشخاص منهم كولومب وبروسير ميريمي لأن ستندال لم يكن معروفاً من الجمهور ، وكان الكثيرون من الأدباء يجهلونه أو يتجاهلونه ، حتى أن بعض الصحفيين حرقوا اسمه وهم ينعونه في صحفهم ، وخططوا بين اسمه الأدبي “Standhal” وبين اسم قصة هي : « فردريك ستندال » Frédéric Styndall من تأليف كراتي Kérarty . وهو خطأ شنيع ، إلا أنه خطأ طبيعي : فقد كانت حياة ستندال حياة

جمع معلومات كثيرة عن حياتي « هايدن وموزار »
خلال إقامته بفيننا .

وفي عام ١٨١٧ نشر كتابه : « تاريخ الرسم في إيطاليا » Histoire de la peinture en Italie وأهداه إلى نابليون . ونظريته في الفن تعنى عناية شديدة بالمضمون أكثر من عنايته بالشكل ، إنه يعنى بتكوين العمل الفني وتركيبه أكثر من عنايته بصقل هذا العمل . وعلى ذلك فهو يفضل جيوتو^(١) بالرغم من هفواته على دافيد^(٢) ومدرسته . ومدرسة دافيد في الرسم تقابل مدرسة بوالو في الشعر ، ترمى إلى احترام الاستعمال واللياقة وعادات القنن التي فرضتها على الفن - في رأى ستندال - « سياسة مزعومة تحاول القضاء على العواطف القوية » . وستندال في كل كتاباته يتطلب من عصره الفني أن يعيد إلى هذه العواطف حقوقها ، وهو لهذا يفضل شكسبير على راسين والنثر على الشعر والحرية على القواعد .

وفي نفس السنة ، عام ١٨١٧ ، اهتدى إلى الاسم الأدبي الذي نشر به كتبه وهو « ستندال » ، وقد استعاره - كما ذكرنا من قبل - من اسم بلدة ألمانية صغيرة ، وكتبه لأول مرة على كتابه : « روما ونابولي وفلورنسا » : Rome, Naples et Florence ويعد هذا الكتاب مع كتاب آخر ألفه سنة ١٨٢٩ وأسماه « نزهات في روما » "Promenades dans Rome"

(١) جيوتو دي بوندوني : رسام إيطالي (١٢٦٦ - ١٣٣٦) ولد بمدينة كول وينتمي إلى مدرسة فلورنسة في الفن . أدخل في الرسم قوة التعبير والعواطف والحياة وانسجام التركيب والعمارة . وقد زين جدران كنيسة أسيزا ومعبد كنيسة « أرينا » في « بادو » .

(٢) دافيد : لويس دافيد ، رسام فرنسي ولد في باريس (١٧٤٨ - ١٨٢٥) اختير زمن الثورة الفرنسية عضواً بمجلس الشعب : وأصبح رسام نابليون زمن الإمبراطورية . وكان زعيم المدرسة الكلاسيكية الحديثة في الفن فأصبح موجهاً للرسم الفرنسي منذ عام ١٧٨٥ حتى وفاته في المنفى . ومن أشهر لوحاته : « مارا مقتولا » و « التتويج » .

بمثابة دليل أدبي يدل على معالم إيطاليا ويعرف بها تعريفاً صادقاً . وهو تجديد أدخله ستندال في الأدب الفرنسي وأطلق عليه منذ ذلك الوقت : أدب « الرحلات » أو « الأدب السياحي » . وهي كتابات تنطوي صفحاتها على الأحداث التاريخية ووصف الأماكن والآثار الفنية وأسرار القلوب وحكايات مختلفة ، إنه خليط عجيب ولكنه يعد طبيعياً وصادقاً كل الصدق . ويحدد لنا ستندال معالم الدور الذي كان يقوم به في إيطاليا ، دور الرحالة الذي أحب إيطاليا حباً جماً ، فيخبرنا بأنه كان يجري كل صباح خلف ذلك اللون من الجمال الذي كانت تجيش به نفسه حين يستيقظ من نومه ، وأنه كان يصور الأشياء التي تقع عليها عيناه وفقاً للأثر الذي تولده في قلبه . وبدلاً من أن يصف في كتاباته لوحات فنية وتماثيل رائعة ، كان يحلو له أن يصف لنا أخلاق الناس وعاداتهم . ومن أهم آراء ستندال وأصدقها أن الإنسان لا يتسنى له أن يفهم إيطاليا الحديثة على حقيقتها ولا يدرك تماماً كنه المرأة الإيطالية إلا إذا عرف تاريخ إيطاليا في القرون الوسطى وفي عصر النهضة حيث كانت إيطاليا أرض القوة والنشاط الجارف زمن سفورس وبورجيا وبنفينو سلسني .

وتعلق ستندال بإيطاليا يبين لنا - كما رأينا من قبل - ذوقه المتغير دائماً ومزاجه الذي لا يستقر إطلاقاً . وإيطاليا التي كان يعجب بها وكتب عنها كثيراً وتنبأ بأنها ستبوء مكانة في مصاف الدول الأوروبية الكبرى ، هي إيطاليا التي كان يعتقد أنه يراها ، لا التي كان يراها حقيقة !

* * *

لم يفقد الأدب شيئاً خلال تلك الفترة التي أقامها ستندال بباريس ، ففي تلك السنوات التسع (١٨٢٢ - ١٨٣١) ألف كتابه « من الحب » De l'Amour سنة ١٨٢٢ وهو دراسة نفسية عميقة لا يقوى عليها إلا ستندال الذي كان موكلاً بالجمال يتبعه ، مشغولاً

بالحب لأنه في رأيه عاطفة تمد النشاط بحيوية كبيرة وتشحن الفكر وتقوى الخيال . لقد كان يؤمن إيماناً شديداً بهذا الجنون الذي يسخر منه العقلاء جميعاً ، ويعده الحكمة بعينها ! والجمال الذي كان يجذب ستندال ليس الجمال الكلاسيكي ، فهو يرى الجمال اليوناني نافهاً ، وكان مولعاً بالجمال « الذي لا نظير له في العالم ! » ذلك الجمال الذي يصفى على النظر أثراً جديداً . لقد قضى خير سنوات عمره يبحث عن هذا الأثر ، ويعدو وراءه عدواً شديداً . ولذلك أحب الإيطاليات فاتخذ إيطاليا مثلاً أعلى له ، وعاش فيها حياة عاصفة ، حياة غنية صاحبة تنطوى على اللهو والعبث والجد والعمل ! يدرس ستندال الحب في بيئاته ومجتمعاته المختلفة ، ويذكر أن نزعات الحب تختلف من موطن إلى آخر ونزواته تتغير من طبقة اجتماعية لطبقة أخرى . يتحدث عن الحب في إيطاليا وأسبانيا وإنجلترا وأمريكا وألمانيا والبلاد العربية نفسها ، حين يتحدثنا عن الحب العذري ويقص علينا قصة شهداء الحب من الشعراء والمحبين العرب . وهو بجانب هذا دراسة وافية للمجتمعات ونظم الحكم وأثر الحكومات المختلفة في عادات الناس وطرق حياتهم وتفكيرهم .

الزم ستندال في هذا الكتاب النقد اللاذع والصراحة الجريئة والخروج على القيم التي كان عصره يتمسك بها كل التمسك ، فلم يقبل عليه إلا سبعة عشر قارئاً خلال أحد عشر عاماً من سنة ١٨٢٢ - ١٨٣٣ حتى وصفه ناشره بأنه « كتاب مقدس ، لا يمسه أحد ! »

وفي تلك الفترة ألف ستندال أيضاً سنة ١٨٢٤ كتاب « راسين وشكسبير » Racine et Shakespeare وفيه يفضل شكسبير على راسين ويتخذهُ أستاذاً له . ثم كتب « حياة روسيني » La vie de Rossini وألف أولى قصصه : « أرمانس » Armance سنة ١٨٢٧ : ثم جذبه من جديد حبه لإيطاليا فكتب : « نزهات في روما » Promenades dans Rome

سنة ١٨٢٩ . كما ظهرت طبعة جديدة لكتابه « روما و نابولي وفلورنسا » زاد فيها كثيراً ، وضمنها آراءه في الفن والأحداث الأدبية وأخلاق الناس وعادات المجتمع ومشاهداته في إيطاليا وذكرياته الكثيرة المثيرة .

وتابع ستندال الكتابة في باريس وسفيتا فيشيا وروما خلال تلك الفترة التي تبدأ سنة ١٨٣٠ وتنتهي بوفاته سنة ١٨٤٢ ، فقد ألف خير قصصه « الأحمر والأسود » سنة ١٨٣١ ، وظهرت له كتب كان قد بدأها في مقر منصبه السياسي ، وهي : « الصياد الأخضر » و « الحوادث الإيطالية » و « مذكرات سائح » وطبعت كلها عام ١٨٣٨ ، ثم ظهرت قصته « ديربارم » في السنة التالية ، وهي قصة كتبها ستندال لجماعة قليلة من المرفهين ذوقياً بطريقة مترفة وأسلوب رفيع . ليست قصة حب فحسب وإنما هي قصة سياسية هامة تعكس المثل العليا الداخلية لأشخاصها وأبطالها الذين يتصفون بالجمال والحظ الباهر والسعادة والشباب ، وتفتح فيهم نزعات البطولة والتحمس والشجاعة والاقدام .

هذه هي الكتب التي نشرت في حياته ، على أن هناك كتباً أخرى لم تنشر إلا بعد وفاته بزمان طويل هي : « لوسيان لوفان » و « لامليل » و « مذكرات » و « حياة هنري برولار » التي تشبه كثيراً حياة ستندال في طفولته ثم « ذكريات عن الذاتية » .

ذاتية ستندال واتجاهاته الأدبية

كان ستندال يتصف « بالذاتية » ، وهي صفة تظهر بوضوح وجلاء في بعض عباراته ، فقد كتب يقول : « هل أغير ؟ إنها لمغالطة كبيرة ! إنني أستسلم تماماً لنقائصي . ويجب على الإنسان أن يعرف نفسه معرفة دقيقة . وطريقة الوصول إلى ذلك هو أن يخضع نفسه لتحليل خالص نزيه . وحينما يتم له هذا التحليل ينبغي له أن يتقبل كل نتائجه بما تنطوى عليه من خير

أو شر على السواء . على ألا يكتفى بتقبل هذه النتائج ، بل يجب عليه أن يولع بها في لذة وقوة ! وأن تكون القاعدة الوحيدة التي يطبقها هو أن يكون مخلصاً مع نفسه ؛ ويظهر هذا الإخلاص في عباراته وتصرفاته . وعليه ألا يأبه بما يقع من مفارقات أو يخالف التقاليد ، ولا يرى صلاحاً أو استقامة خارج هذا النطاق . وأن نشك فيما قد نناله من نصر على نفوسنا باسم العقل أو السيطرة أو الأخلاق ! » .

هذا هو المبدأ الأساسي لأخلاق ستندال وتفكيره وسلوكه في الحياة ، وهو مبدأ قوى أطلق عليه النقاد لفظ « بيليزم » نسبة لهنرى بيل .

ويتصل بهذا المبدأ من قرب ما سماه ستندال « قوة النفس » . ولكن ماذا يقصد ستندال بهذه الكلمة ؟ إنه لا يريد إطلاقاً تلك الإرادة التي نستعملها لتكوين الشخصية أو الوصول إلى درجة ما في نظام المجتمع ، أو لنكون متدينين معتدلين عادلين ! إن الرجل القوى في عرف ستندال هو الذي لا يعرف كيف يحد من قوة عواطفه أو اضطراب غرائزه ، ويكره كراهية شديدة أن يكون قدوة الناس . فالرجل القوى هو الذي لا يحب قسوة الأوامر ولا يحفل بالحدز في كلامه ! ولهذا كان ستندال يحب الجرأة والشجاعة التي تستهويه في جميع صورها ، ويولع ولعاً شديداً بنزعة البطولة والتحمس : ففبريس دلدنجو بطل دير بارم ، بطل شاب ، ذهب صبيلاً ليلقى نابليون ويشترك في معركة واترلو ! وجولييان سورل بطل « الأحمر والأسود » صورة صادقة لبونابرت في جرائته واقدامه، اتخذ طول حياته مثله الأعلى . وتسلمت عليه فكرة كان يرددها دائماً وهي أن نابليون ، الضابط الفقير المغمور ، قد استطاع بحد سيفه أن يصبح سيد العالم ، فلم لا يصبح هو بدوره ، وهو ذلك البائس ابن النجار الفقير ، سيداً مسموع الكلمة ، مرهوب الجانب ؟

إن قوة النفس التي تتردد في كلام ستندال لا ترمي إلى شيء آخر سوى الأخلاق ، وهي عنده التلقائية ، تلك النزعة الطبيعية التي اكتسبها من إقامته الطويلة في إيطاليا ، وهي أيضاً الاستقلال . والنشاط هو الفضيلة التي تلح على الشخصية قوة كاملة ، فهو الذي يثيره تارة ، ويدفعها إلى الحمق تارة أخرى ! وكما كان يحلو لستندال أن يعبث عبثاً واضحاً في الصالونات التي تتصف بالوقار ! وكما كان يبدو فظاً غليظ القلب في تلك الصالونات ، ويسره — وهو في ضيافة البارونة « جيرار » — أن يبدى آراء غريبة تنسم بالقحة ليشتت شمل سيدات أسر « جى وسوفى ودلفين الأم وكريمتها » ! وحين يتحدث ستندال عن رذيلة أو معصية أو جريمة لا يحكم إطلاقاً بأنها رذيلة أو معصية أو جريمة ! يقص علينا في دير بارم قصة قتال نشب بين فبريس دلدنجو وبين مهرج يدعى جيلتى بسبب فتاة ، وقد أفضى القتال إلى موت جيلتى . ومع ذلك فلم تحل تلك الجريمة دون أن يعين فبريس رئيساً لأساقفة بارم ! إنه يتحدث في صراحة عن المكر والخداع والدسائس والعلاقات الجنسية التي تنطوي على خيانة النساء لأزواجهن والرجال لنسائهم ، يتحدث عن وعد الدوقة سنسفرينا للأمير بارم بأن تمكنه من نفسها لو أمر باطلاق سراح فبريس من السجن لينجوا من السم الذي سيدس له في الطعام ! لهذا كله أحب ستندال نابليون حباً شديداً بعد عام ١٨١٥ ، وكان محامياً له قبل الأوان لأن الكاتب كان يرى في بونابرت خير أساتذة النشاط والجرأة والاقدام . وقد خلق له تلاميذ ستظل ذكراهم عالقة بالأذهان ، يتصفون بالمشاعر القوية والكبرياء الشديدة والتسلط على الرجال والتلقائية المتطرفة والفضائل العامة . وكان يحلو لستندال دائماً أن يقارن هذه الصفات بما فطر عليه أمراء عصره وشباب الطبقة الثرية من تفاهة وسماجة ونفاق وتملق وضعف خلقى ، في عهد إعادة الملكية وفي عهد الملكية في ثورة شهر يوليو سنة ١٨٣٠ . ثم يذكر في

اعجاب شديد الحماسة الكبيرة والحزم الشديد للذين كان عليهما الجمهوريون سنة ١٧٩٢ ، وجلبه خيل الإمبراطورية التي كانت تجلجل في جميع أنحاء أوروبا ! طبق ستندال هذه المبادئ على الأدب ، فطالب عصره بأن يعيد إلى العواطف القوية حقوقها ليتحدث الناس في جرأة وشجاعة وليتصفوا بالتلقائية والنشاط والحيوية . ولهذا فضل النثر على الشعر والحرية على القواعد ، وتحمس للمذهب الرومانتيكي تحمساً قوياً ، إلا فيما يتعلق باقتصار أنصار هذا المذهب على تصوير الحاضر والحوادث التي تجري في عصرهم . وهو لهذا يعد رومانتيكياً للعصر القديم ، وإن كان القرن التاسع عشر يعده كلاسيكياً . أحب جان جاك روسو وفولتير وفضل شكسبير على راسين وأعجب بأبطال كورني ، كما أحب من الموسيقيين سيراموزا وروسيني وفضلهما على وبر وبيتهوفن .

تعلم ستندال اليسير من أساتذته والكثير من قراءاته ورحلاته . وجد غذاءه العقلي وطريقته في التفكير فيما كتبه الفيلسوف الفرنسي « دستوت دي تراسي »^(١) أحد أنصار مدرسة كوندياك . وهي طريقة ترمي إلى دراسة الآراء من حيث هي ، وكان لا يبغي من وراء هذه الطريقة مجرد الحصول على معلومات عن القلب البشري ، ولكنه كان يرمي إلى أن يتاح له التسلط على الرجال حين يعرف أسرارهم الدفينة ونزعات قلوبهم . كان موهوباً في قوة ملاحظته ، فعرف كيف يراقب الناس ويتغلغل في خبايا القلوب والنفوس ويتقصى في دقة شديدة البواعث الخفية التي تصدر عنها أفعالهم ، ويتوصل إلى معرفة الفروق الدقيقة في ثقة

(١) انطوان لوى كلود دستوت دي تراسي : فيلسوف فرنسي ينتمي إلى مدرسة كوندياك ، ولد بباريس (١٧٥٤ - ١٨٣٦) ويعتبر زعيم الأيديولوجيين ، وهم أولئك الذين يقبلون الآراء على علاقتها لا يخلطون بينها وبين أي لون من ألوان الميتافيزيقا . كان معاصراً لستندال ، واختير عضواً بالأكاديمية الفرنسية .

كبيرة ويضفي هذا كله على أشخاص قصصه . وصفه "Taine" الناقد الفيلسوف الفرنسي بقوله : « لم يعلمنا أحد خيراً من ستندال كيف نفتح عيوننا لنرى ونلاحظ ما يدور حولنا ! » .

لقد عرف ستندال نفسه معرفة عميقة فتوصل إلى معرفة النفوس البشرية ، وجاءت كتاباته مملوءة بالدراسات النفسية ، بالحياة الداخلية لأبطاله وأشخاص قصصه : بسرورهم ومخاوفهم وحذرهم ومكرهم وبكل صراع يعمل في نفوسهم . ولذلك نراه يعرض علينا نماذج مختلفة ، فأبطال للحب مثل فريس دلدنغو وكليلا كونتي وجوليان سورل ومدام دي رينال وماتيلد دي لامول وأبطال للمكر والخداع والدسائس ، مثل رافرسى وراسي والأب سورل . حب وسعادة وشباب وجمال وكراهية وبؤس وقبح وخداع ، نزعات مختلفة تمثل الناس في كل مجتمع صاحب وتصدق على كل عصر من العصور !

مكاته الأدبية

كرمت الحكومة الفرنسية ستندال ، فتمنحه وزير المعارف عام ١٨٣٥ وساماً تقديراً لأدبه ، غير أن الأدباء والنقاد الفرنسيين قد اختلفوا اختلافاً شديداً في الحكم عليه : فميكور هيجو يحقره ، وألفريد دي فيني يرتاع منه ، ولم يخصص له ألفريد دي موسيه إلا فقرة واحدة في شعره ، وبروسبير ميريمى لم يكن من المعجبين بأدبه وإن كان صديقاً وتلميذاً له . وكان لستندال تأثير كبير عليه فقد علمه مذهباً جديداً في الحياة يقوم على الشك والولع بالموسيقى والتمتع بالحياة واللذة في ملاحظة الآخرين في حياتهم ومحاولة تفسير أعمالهم وعواطفهم . أما سانت بييف فقد كتب عنه مقالين . وكان بلزك أول من درس دير بارم دراسة طويلة ووصفها بأن السمو يتجلى في فصولها فصلاً بعد فصل فتحمس لستندال ، ونادى به أستاذاً من أساتذة القصة

عام ١٨٤٠ ، ولكن معاصريه كانوا مع ذلك لا يؤمنون بشيء من هذا كله . كان أكثر كتبه رواجاً هو « نزهات في روما » وهو بمثابة دليل أدبي يكشف عن جمالها وتاريخها .

أما كتبه الأخرى فلم تكن خيراً من كتابه « من الحب » كانت مقدسة لا يمسه أحد !

تحمل ستندال هذا الظلم الشديد ، لأنه كان يعلم تماماً أنه في مؤلفاته خارج على تقاليد عصره : فهو يحدثنا في « الأحمر والأسود » قائلاً : « . . . ومع ذلك فالقصة يا سيدي مرآة ينعكس فيها كل ما في الطريق العام ، فهي تارة تعكس زرقة السماء ، وتارة تعكس الوحل الذي يجلل الطريق . أما الرجل الذي يحمل المرأة فأنت لا تتردد في اتهمه بأنه لا يربى الأخلاق لأن مرآته تريك الوحل ، وأنت تتهم المرأة ! أولى بك أن تتهم الطريق العام الذي جللته الأوحال ، بل أولى من ذلك وأصح أن تتهم مفتش الطريق الذي ترك الماء يأسن ، فتراكت بسببه الأوحال (١) » .

وبالرغم من هذا الظلم ، فقد أحيا « تين » في عهد الإمبراطورية ذكراه ، ورأى أن أدبه يصطبغ بالصبغة العلمية ، واستعار كثيراً من آرائه في كتبه ، وخاصة في : « فلسفة الفن » و « رحلة في إيطاليا » و « أصول فرنسا المعاصرة » و « الذكاء » . وحياء بول بورجيه حين ذكر أنه أب لتحليل النفسى في الأدب ، وخالق فكرة حب البلاد جميعاً . وهذا هو رأى نيتشه وتولستوى أيضاً . ويرى « موريس بارس » أن ستندال صادق في التعبير عن آرائه ومشاعره . وشارل موريس يضعه ضمن هذه الجماعة التي يراها مقدسة ، وهي جماعة الرمزيين . أما هنرى ديرييه فقد قام برحلة في إيطاليا ، ولم يتردد في أن « يحكي ذكرى سنسفرينا في حدائق فارنر ببارم ذات مساء من أمسيات الخريف ! » .

(١) الأحمر والأسود ج ٢ ص ٢٠٠ و ٢٠١ من الترجمة العربية .

أتيحت لستندال بعد وفاته شهرة كبيرة أخذت تزداد على مر السنين ، ووقف القرن العشرون بجواره وقفة مجيدة فنشرت كتبه التي لم تطبع من قبل ، وكانت مخطوطاتها قد سلمها كولومب ، صديق ستندال ومنفذ وصيته ، إلى مكتبة جرينوبل ، وعنى بأدبه جماعة كبيرة من مؤرخى الأدب ونقاديه . واهتمت السينما بمؤلفاته اهتماماً شديداً ، فالممثل الفرنسى الكبير « جيرار فيليب » قام ببطولة فيلمين مأخوذتين من أدب ستندال ، كما فرغ روسيليني حديثاً من إعداد فيلم جديد تظهر فيه الأماكن الجميلة التي أحبها ستندال حباً جماً وتلك المغاني الإيطالية الفاتنة التي اختارها وطناً ثانياً له : بحيرة كوم وميلانو وبارم وروما وغيرها . كما أعد له التليفزيون الفرنسى ثلاثة برامج طويلة في العام الماضى ، تناولت حياته وأدبه وأبطال قصصه وغرامياته .

كل هذا مجد لم يكن هنرى بيل يتوقعه ! على أن جمهرة القراء من غير الفرنسيين تكتفى عادة بقراءة قصتين تعدان خير ما كتبه ستندال وهما : « الأحمر والأسود » و « دير بارم » (١) . أما كتبه الأخرى فتلذذ قراءتها لأنصار ستندال من الخاصة الذين يحبونه ويفضلونه على غيره من الكتاب .

الأحمر والأسود

أهم شخصيات القصة :

جوليان سورل — دى رينال عمدة فريير — مدام دى رينال — المركز دى لامول — ماتيلد دى لامول ابنة المركز .

كتب ستندال هذه القصة عام ١٨٣١ ، والعنوان على غرابته يرمى إلى الكشف عن ذلك الصراع الذى

(١) دير بارم : قمت بترجمتها بجزأها إلى اللغة العربية ، وطبعها دار الكاتب المصرى في أبريل ١٩٤٧ .
الأحمر والأسود : ترجمتها بجزأها لمشروع الألف كتاب ونشرتها مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٥٦ .

نشأ في القرن الماضي بين النزعة الحربية (الأحمر) والنزعة الكنسية (الأسود) . بطل هذه القصة هو «جوليان سورل» ، نشأ في بيئة اجتماعية متواضعة فوالده نجار يقيم بمدينة فرنسية صغيرة أسماها ستندال «فريير» تقع في مقاطعة فرانك كونتيه على مقربة من مدينة بيزانسون .

تعلم جوليان تعليماً دينياً ليصبح قساً ، ولكن سلطان الدين لم يكن متمكناً من قلبه . لقد كان طموحاً ، يرمى إلى أن يصل إلى مكانة عسكرية كبرى عن طريق ثيابه الدينية السوداء . اختير أول أمره ، وكان لا يزال في التاسعة عشرة من عمره ، معلماً خاصاً لأولاد السيد دي رينال عمدة فريير ، فنجح في مهمته نجاحاً كبيراً وذاع أمره في المقاطعة كلها ، وحاول بعض أثرياء فريير جاهدين أن ينزعوه من بيت دي رينال ليعلم أولادهم . وأتاحت له شهرته واثقانه للغة اللاتينية أن يحصل على منحة دراسية بالمدرسة الأكليريكية بيزانسون ، إلا أنه لم يقيم بها إلا عاماً وبعض عام لأن دساتير بعض رجال الدين كانت تطارده ، وأحقاد زملائه له دائماً بالمرصاد في دراسته وغدوه ورواحه ؛ فغادر المدرسة ليعمل سكرتيراً للمركز دي لامول بباريس . ثم خلع الثياب الدينية ليصبح ملازماً بالحيلة ، وكان على وشك الزواج بماتيلد دي لامول ابنة المركز ، على كره من أبيها . غير أنه علم أن مدام دي رينال — زوجة عمدة فريير وخليفة جوليان السابقة — أرادت الوقعة به لدى المركز ، فسافر إلى فريير وأطلق عليها رصاصتين ، وهي تؤدي الصلاة في الكنيسة ، إلا أنه لم يصب منها مقتلاً . قبض عليه واقتيد إلى السجن وحوكم وحكم عليه بالإعدام ، بالرغم من عطف الجماهير عليه والمحاولات التي بذلتها مدام رينال والآنسة دي لامول في سبيل الحصول على قرار بالعتف عنه .

* * *

يضع النقاد هذه القصة في صف القصص العالمية الكبرى ، لأنها مليئة بالدراسات النفسية الدقيقة للعواطف العميقة وخلجات القلوب وهمسات النفوس ونظرات العيون ، واختلاف الطبائع والنزوات والغرائز والنزعات التي تسيطر على جميع أشخاص القصة . يتضح هذا في جلاء وعمق لأن ستندال كان يعنى عناية كبيرة بالحياة الداخلية لأشخاص قصته ، ويهتم اهتماماً شديداً بما يضطرب في نفوسهم من صراع وسرور وخوف وألم وخديعة، وفقاً للمواقف المختلفة التي تفرضها حياتهم اليومية في مجتمع مضطرب يعج بالانقلابات وحروب نابليون ومبادئ الثورة الفرنسية ، وتتغير فيه ألوان نظام الحكم وتتطاحن فيه الطبقات الاجتماعية : اضطراب صاحب للميول والأهواء والنزعات والأحقاد والمثل العليا والانتصارات الحربية ، والتضحية والحب وما إليها من تلك العوامل التي كان القرن التاسع عشر مسرحاً لها !

يدفع الحب أبطال هذه القصة إلى أن يقدموا على كل شيء في جرأة شديدة ، ويأتوا من الأعمال ما ينطوي على التضحية الحقة والشجاعة الفائقة والتحمس الشديد ، ولا يأبهون إطلاقاً بما يجره عليهم من حزن وقلق وخوف ، لأن الحب عندهم جميعاً سعادة وسرور وقوة ونشاط !

في مدرسة الحب ، وعلى يد مدام دي رينال تعلم جوليان سورل ، وكان سعيداً بما تعلم : لقد استطاع أن يتعرف على المجتمع الذي يعيش فيه تعرفاً حقيقياً مباشراً ، ولم يعد الوصف الذي يقرؤه «يسدل ستاراً» على نفسه حين يتناول كتباً تتحدث عن حالة المجتمع منذ ألفي عام أو منذ ستين عاماً فحسب ، أيام فولتير ولويس الخامس عشر . أسقطت أحاديث الحب الحجاب عن عينيه ، فسر كثيراً حين استطاع أن يفهم ما يجري في فريير فهماً صحيحاً . إلا أنه كان حياً مدمراً عكر صفو أسرة كانت تنعم بالحياة وجر عليها

العار ! « ولكن لماذا أدخل العمدة قصره شاباً على النفس وهو في حاجة كبيرة إلى وضعاء النفوس ؟ لماذا لا يعرف كيف يختار رجاله ؟ إن العرف المتبع في القرن التاسع عشر هو أن الرجل القوى الذي ينتمى إلى طبقة الأشراف ، لا يلبث إذا تقابل مع عظيم النفس أن يقتله أو ينفيه أو يلقي به في غياهب السجون ، أو يزدرية ازدراء شديداً ، فلا يلبث الأحمق أن يحزن ويموت غيظاً وكهداً . ولكن المصادفات أرادت أن يكون المعضب في هذه المرة هو القوى الشريف » (١) .

فهل كان جوليان سورل حقاً صورة صادقة لنابليون أدخله دى رينال قصرة فأفسد عليه جميع أمره ، كما عاث في قصر المركز دى لامول فساداً وطعنه في شرفه حين اتخذ ابنة المركز خلية له ؟ ولكن شتان ما بين القلبين ! كانت مدام دى رينال تجد من الأسباب ما تحملها على عمل ما يملئ قلبها . وكانت في أسعد لحظات حياتها تخاف أن يكون حب جوليان لها معادلاً حبا له . أما ماتيلد دى لامول هذه الفتاة الأرستقراطية الرائعة الجمال المعتدة بشخصيتها وحسبها ، فلا تترك قلبها ينض بالحلب إلا إذا اقتنعت هي بأن هناك أسباباً وجبة تحمله على ذلك . يصفها جوليان بأنها شيطان وعليه أن نخضعها ويذلها ! وقد استطاع إخضاعها وإذلالها ، لأن الأحقاد الناشئة عن فروق الطبقات كانت تسيطر على جوليان سيطرة تامة ، وتتسلط على عقله وعواطفه فيعد كل نجاح يحرز في حياته انتصاراً على السادة الأشراف المفاخرين بحسبهم ومالهم وسيادتهم والمسيطرين على مجتمع عصرهم !

وهنا نرى ستندال يزج بجوليان سورل في ميدان السياسة ومؤامرات الطبقة الأرستقراطية ، فيجعله يشهد مناقشات سياسية عنيفة تدور بين جماعة كبيرة من أشهر رجال عصره في السياسة والصحافة والأعمال والدين . ويكلف بمهمة سرية في إنجلترا من قبل هؤلاء

(١) الأحمر والأسود : الفصل الثالث والعشرون « أحزان موظف » ج ١ ص ٢٢٠ من الترجمة العربية .

السادة الأشراف الذين تدفعهم أطماعهم إلى أن يستعينوا بانجلترا ليستقر لهم الأمر ، فلا تقوم في فرنسا ثورات جديدة تحطم آمالهم وتقضي على أطماعهم . فليس صحيحاً إذن ما زعمه ستندال من أنه أراد أن يضع نقطاً على صفحة كاملة ، وهو يتحدث عن السياسة ، فقال له الناشر : « إن هذا ليس محموداً ، لا سيما وأن ما تكتبه ضرب من اللغو ، فإذا لم يتوافر الظرف فيما تكتب حكمت عليه بالموت » . فأجابه ستندال قائلاً :

« إن السياسة كحجر يشد إلى عتق الأدب ، فلا يلبث أن يغرقه في زمن لا يزيد على ستة شهور . السياسة بين الانتاج العقلي كطلقة نارية وسط حفل موسيقى . هي ضجة مفرقة ، لكنها ليست قاضية ، فهي لا تلائم أى صوت من أصوات آلات الموسيقى . وهذه السياسة ستضايق نصف القراء ضيقاً شديداً ، وتوقعهم في الحرج ثم تجلب السأم إلى نفوس النصف الآخر حين يقرؤنها في صحيفة الصباح بصورة أخرى » .

فأجابه الناشر قائلاً : « إذا لم ترد السياسة على السنة أشخاص قصتك ، فهم ليسوا إذن فرنسيين يعيشون في سنة ١٨٣٠ ، ولن يكون كتابك مرآة للحوادث كما تزعم ! » .

* * *

هذه القصة ليست قصة حب فحسب وإنما يتجلى فيها الصراع السياسى العنيف بين أنصار نابليون وأعدائه بين الملكيين والجمهوريين ، بين الأشراف والطبقة الوسطى والعامية . يتضح فيها هذا الخوف الشديد الذى يبديه أشراف باريس ونبلاء الريف من أن تقوم ثورة أخرى تعصف بهم كما نكلت الثورة الفرنسية بهم من قبل وقضت على الكثير من امتيازاتهم . ثم فيها محاولات كبيرة لإذابة الفروق بين الطبقات الاجتماعية ، ليتولى مقاليد الأمور في فرنسا شبان متعلمون أذكياء أمثال جوليان سورل ، وكثير ما هم ، وإن انتموا إلى طبقة العامة إلا أنهم ينتمون جميعاً إلى مدرسة نابليون بونابرت في العمل والحزم والشجاعة والجرأة والاقدام :

السام

(لم أعد أعرف من أكون ولا ماذا أفعل)

موزار (فيجارو)

كانت مدام دي رينال خارجة من باب صالونها المطل على الحديقة بما فطرت عليه من نشاط وظرف ، حين تكون بعيدة عن أعين الرجال ، فوق بصرها على شاب ريفي شديد الشحوب ، واقف بجوار الباب وهو ييكى . عليه قميص ناصع البياض ، وتحت ابطة حلة من الجوخ بنفسجية نظيفة ، أبيض الوجه ، جميل العينين ، فظنته مدام دي رينال بما فطرت عليه من خيال قصصى — فتاة تنكرت في ثياب رجل ، جاءت تطلب عوناً من العمدة ، وأشفقت على هذا المخلوق البائس الذى ظل واقفاً بجوار الباب ، لا يجروء على رفع يده ليدق الجرس . فاقتربت منه ، وكان جوليان ينظر إلى الباب فلم يرها وهى مقبلة ، فاضطرب حين سمع صوتاً رقيقاً قريباً من أذنه يقول :

— ماذا تريد منا يا بنى ؟ ووقع بصره على نظراتها الرقيقة حين التفت إليها فى اندفاع ، فزايله بعض حياته ، ثم رأى جمالها ، فنسى كل شيء ، حتى المهمة التى أتى من أجلها : وعادت مدام دي رينال تسأله فأجابها ، وقد خجل من دموعه التى أخذ يحففها .

— أتيت يا سيدتى لأعلم الأطفال ، فبهتت ، وظلت واقفة بالقرب منه لا تبدى حراكاً ، ونظر كل منهما إلى الآخر . لم ير جوليان من قبل سيدة متأقفة فى ملابسها كدام دي رينال ، ولا وجهاً كوجهها فى الجمال . ولم يسعد فى حياته بحديث عطوف رقيق كحديثها . وكانت مشغولة بالنظر إلى الدموع التى سالت على خدى هذا القروى الشاب فصرجتها بالحمرة بعد الصفرة الشديدة . ثم طفقت تضحك ضحكاً جنونياً

شديداً ، لا تستطيعه إلا فتاة صغيرة . وسفرت من نفسها لأنها كانت سعيدة إلى أبعد حد : أهذا هو المعلم الذى صورته لنفسها من قبل فى صورة قسيس . قدر ، رث الثياب ، يأتى إليهم ليؤنب أطفالها ويضربهم ؟ ثم قالت له :

— أحقاً يا سيدى أنك تعرف اللاتينية ؟

فذهل جوليان حين سمع كلمة سيدى وأطرق برأسه لحظة ثم أجابها فى حياء :

— نعم يا سيدتى .

وكانت مدام دي رينال فى هذه اللحظة سعيدة إلى أبعد حد ، سمحت لنفسها بأن تقول له :

— لن تؤنب أولادى كثيراً ، أليس كذلك ؟ فأجابها فى دهشة وحيرة :

— أنا أؤنبهم ، ولماذا ؟ فقالت بعد صمت قصير ، فى نبرات يظهر فيها التأثير لحظة بعد أخرى :

— نعم يا سيدى ! أتعدنى بأن تكون معهم طيباً رقيق القلب ؟

ولم يكد جوليان يسمع تلك السيدة الأنيقة تناديه بقولها سيدى ، فى لهجة تنطوى على الجد ، حتى طار عقله فرحاً . لم يكن يتصور اطلاقاً ، حتى فى أحلامه التى يضطرب بها شبابه ، أن سيدة جميلة أنيقة تتحدث إليه هذا الحديث الرقيق دون أن يكون لابساً حلة جميلة . وعجبت مدام دي رينال بدورها من جمال وجهه وعينه الكبيرتين السوداوين وشعره الجميل المجعد ، الذى كان فى تلك الساعة أكثر تجعداً منه فى أى وقت آخر ، لأنه أراد أن يستعيد بعض نشاطه فغمس رأسه فى حوض النافورة العامة .

وسرت مدام رينال حين رأت على المعلم حياء العذارى ! لأنها كانت تخشى على أبنائها من رجل قاس عبوس الوجه . لأنها لمباغته سارة لنفسها الهادئة التى تولع دائماً بالوثام وتحب السلام ثم زالت دهشتها بعد قليل ،

— لا تخشى شيئاً يا سيدتى فسأطيعك فى كل ما تأمرين .

وتبددت مخاوف الأم على أطفالها ، فآن لها أن ترى وجه جوليان على حقيقته ، وعندئذ أذهلها جماله . إنه كوجوه العذارى ! ولم تعد تعجب باضطرابه وخجله ، لأنها كانت بطبعها كثيرة الحجل شديدة الحياء . وكان مظهر الرجولة الذى يحبه غيرها من النساء يخيفها ويزعجها . ودار بينها وبين الشاب الحديث التالى ، فقالت له :

— كم عمرك يا سيدى ؟

— سأكون عما قريب فى التاسعة عشرة من عمرى .

— إن ابنى الأكبر فى الحادية عشرة . ومن الممكن إذاً أن يكون لك صديقاً ، فتحدث إليه حديثاً يلائم سنه . لقد أراد أبوه مرة أن يضربه فصفعه صفقة خفيفة ، فرض أسبوعاً ولزم الفراش .

ولم يكد جوليان يسمع كلامها حتى أخذ يقول فى نفسه : ما أعظم الفرق بينى وبين ابنها !

لقد ضربنى أبى بالأمس ، حقاً ، أن هؤلاء الأغنياء لسعداء ! وكانت السيدة شديدة الانتباه إلى كل ما يدور فى نفسه ، فأبصرت وجهه وقد غطته سحابة خفيفة من الحزن ظنتها لفرط حياء منه ، فشجعت سائلة إياه عن اسمه فى لهجة جذابة ، أحس جوليان كل ما فيها من جمال دون أن يدرك مرماها ثم أجاب :

— أدعى جوليان سورل يا سيدتى ، وإنى لشديد الاضطراب ، فهذه أول مرة فى حياتى أعيش فيها فى منزل لا أعرفه .

أنا فى حاجة إلى حمايتك يا سيدتى ، وأرجو أن تصفحى عن الهفوات التى أقترفها فى الأيام الأولى من حياتى معكم ، فانى لم أذهب مطلقاً إلى مدرسة لأننى كنت فقيراً ، ولم أتحدث مع رجل ، غير أبى وابن عمى الجراح العجوز الذى يحمل وسام الشرف والتيسيس

ونظرت فإذا هى تكاد تكون ملتصقة بشاب جميل لا تعرفه من قبل ، لا يكاد يستره إلا قميص ، وكانا واقفين معاً بجوار الباب . فقالت له فى نبرات مضطربة :

— فلندخل المنزل يا سيدى .

وكانت بادية التأثر ، شديدة الفرح ، سعيدة بزوال مخاوفها من أن يقع أطفالها بين يدى قس قدر فظ القلب ، خشن الطباع ، لأنها شديدة العناية بهم .

ولم تكد تدخل الردهة حتى التفتت إليه ، وهو يتبعها فى حياء شديد : وبهره جمال المنزل وفخامة الأثاث ، فازداد وجهه فى نظرها جمالاً على جمال ، حتى كادت لا تصدق عينها . وخيل إليها أن المعلم يجب أن يلبس السواد ، فوقفت سائلة :

— أحقيقة يا سيدى أنك تعرف اللاتينية ؟

ألقت عليه هذا السؤال لأنها كانت تخاف ألا يكون هو معلم أولادها . لكن جوليان أحس فى سؤالها جرحاً لكبريائه ، بدد الحلم الجميل الذى كان ينعم به منذ ربع ساعة ، فأجابها فى هدوء بارد :

— نعم يا سيدتى ، أعرفها كما يعرفها كاهن المدينة . وكثيراً ما كان يتفضل على فيقول إنى أعرفها خيراً منه .

ورأت السيدة على وجهه دلائل الشر وهو واقف على بعد خطوتين منها فدنت منه وقالت له بصوت خفيض :

— أتعدنى بأنك لاتضرب أبنائى فى الأيام الأولى ولو لم يحفظوا دروسهم ؟

نغمت عذبة حلوة نطقت بها عادة حسناء فنسى جوليان دفاعه عن نفسه ، لأنها نغمت يشوبها التضرع . وكان وجهها قريباً جداً من وجهه ، حتى أنه شم عطر ملابسها الصيفية ، وهو شىء لم يعتده فلاح مثله ، فاحمر وجهه ، وقال لها فى صوت خافت مضطرب :

السيد شيلان الذى سيشهد لى شهادة طيبة . كان اخوقى
يضربوننى دائماً ، فلا تصديقهم إذا قالوا غنى قولاً
سيناً ، اغتفرى لى أخطائى واعتقدى دائماً أننى لا
أرتكبها عمداً .

وعاد الهدوء إلى نفسه بعد هذه الخطبة الطويلة ،
فتأمل السيدة التى كانت تبدو جميلة ، ظريفة إذا
كانت على سجيته وكان من تتحدث إليه لا يتكلف
الظرف معها . ولو أن جوليان سئل عنها فى هذه اللحظة
لقال صادقاً : أراها لم تتجاوز العشرين من عمرها
بعد ، وهو خير بجمال النساء .

وبدا له أن يقبل يدها ، لكنه سرعان ما ندم على
فكرته وخشى مغبة عمله . على أنه قال فى نفسه : لو
أننى أحجمت عن هذا العمل لعددته جبناً ، ومن
يلدبنى لعل فيه خيراً لى ، وربما أكسبنى احتراماً فى
نظر هذه السيدة التى ترانى عاملاً بائساً خرج من المصنع
منذ قليل .

وتردد ، ثم شجعه ما ذكره من أن بعض الفتيات
كن يصفنه بالجمال ، حين كان يلتقى بهن أيام الآحاد ،
وكان ذلك منذ ستة شهور . وتكلمت مدام دى رينال ،
وهو فى صراعه النفسى ، ترشده إلى الطريقة التى يعلم
بها أولادها أول الأمر . وكان هذا الصراع قد أعاد
الشحوب إلى وجهه الجميل ، فقال لها وهو يحاول
التغلب على ما فى نفسه :

— لا يا سيدتى ، لن أضرهم أبداً : وأقسم لك
على ذلك أمام الله ، ثم اندفع وتناول يدها وقبلها .
وأذهلتها هذه الحركة فكادت تغضب . كان الجو
شديد الحرارة ، وذراعها عارية لا يسترها إلا لفاع ،
فانكشفت حين رفع جوليان يدها إلى شفتيه . ومرت
لحظات ندمت بعدها السيدة على أنها لم تؤنبه على ما فعل
كان السيد دى رينال فى غرفة عمله ، فسمع كلاماً
فى الردهة ، خرج بعده ، وسار نحوهما فى هيئة تدل على

حنو وعظمة : سار فى تلك الهيئة التى يصطنعها فى
حفلات ازواج فى دار العمدية ، ثم قال لجوليان :
— يجب أن أتحدث إليك قبل أن يراك الأطفال .

ولما دخلا الغرفة معاً وأغلق الباب ، احتجز زوجته
التي كانت تريد أن تركهما معاً ، ثم جلس دى رينال
فى وقار وقال :

— أخبرنى السيد القس أنك من الرعايا المخلصين ،
وسيعاملك جميع من هنا معاملة كلها احترام . وإذا
سرنى عملك ، ساعدتك فيما بعد فى الحصول على
منصب . أما الذى أطلبه منك ، فهو ألا ترى بعد الآن
أحداً من أقاربك أو أصدقائك ، لأن لغتهم لا تتفق مع
ما أبتغيه لأبنائى من تربية سليمة . هاك ستة وثلاثين
فرنكاً ، أجرك عن الشهر الأول ، وعدنى بشرفك
ألا تعطى منها شيئاً لأبيك .

كان العمدة مغيضاً من الشيخ سورل لأنه كان
أكثر منه ذكاء ودهاء فى اتمام هذه الصفقة . ثم
استطرد يقول :

— والآن أيها السيد لا يحسن أن يراك الأطفال
فى هذه الملابس . وقد أصدرت أمراً بأن يدعوك كل
من فى المنزل بالسيد ، وستشعر بعد قليل بالنفع الذى
يعود عليك حين تعمل فى منزل قوم محترمين .
ثم سأل زوجته :

— هل رآه الخدم فى هذه الثياب ، فأجابت وعليها
دلائل تفكير شديد .

— كلا يا صديقى .
فتناول العمدة رديجتاً من ملابسه الخاصة وهو
يقول :

— حسناً ، البس هذا ، وسنذهب معاً إلى مسيو
دوران تاجر الأصواف . وانصرفا ، ثم عادا بعد
ساعة ، والمعلم الجديد فى حلة سوداء . ولما دخل
دى رينال ألفى زوجته فى مكانها لم تبرحه . ولشد

ما اطمأنت ، حين وقع بصرها على جوليان حتى نسيت وهى تنظر إليه أنها كانت من قبل منزوعة منه .

كان جوليان لا يفكر فيها الآن ، وعلى الرغم من أنه يحذر الأقدار والرجال فان روحه فى تلك اللحظة كانت روح طفل عابث . وخيل إليه أنه عاش سنوات طويلة منذ وقف مضطرباً فى الكنيسة قبل ذلك بثلاث ساعات . وألقى نظرة على مدام دى رينال فألفاها ضجرة فأدرك أنها لا تزال غضبي منذ قبل يدها ، غير أن ثيابه الجديدة بعثت فى نفسه زهواً شديداً ، لأنها تغاير ما اعتاد أن يلبسه من قبل ، فكانت حركاته صاخبة جنونية ، وحاول عبثاً أن يخفى فرحه ، فأخذت السيدة تنظر إليه فى دهشة وحتى قال له زوجها :

— عليك بالرزانة يا سيدى إذا أردت أن يحترمك الأطفال والخدم .

فقال له جوليان :

— معذرة يا سيدى ، فان الحلة الجديدة تضايقنى فإ كنت ألبس من قبل إلا ملابس الفلاحين الفقراء . أسمح لى بالذهاب إلى غرفتى لأغلق على الباب ؟ وانصرف فسأل العمدة زوجه :

— ماذا ترين فى هذا الكسب الجديد ؟ فأشارت إليه إشارة أملت عليها الغريزة ، دون أن تفتن ، ثم أخفت الحقيقة عن زوجها حين قالت :

— لست متحمسة مثلك لهذا الشاب الريفى ، وأن مبادأتك إياه بالبشاشة والكرم ستخلق منه شخصاً سيئ الخلق تضطر إلى طرده قبل أن يمضى على إقامته معنا شهر واحد .

— حسناً ! سرى ما تقولين ، وإذا تحقق ظنك فلن أخسر فى هذه التجربة إلا مائة فرنك فقط ، على أن فريير ستعتاد أن ترى أطفال السيد دى رينال مع معلم خاص بهم : وهذا الغرض الذى أرمى إليه لا يتحقق

إن تركت جوليان فى ملابس العمال . وإذا طردته ، فسأخذ ، ولا شك ، الحلة السوداء الجديدة التى اشتريتها له من تاجر الصوف ، ولن أترك له إلا ما وجدته عند الحائك وهو ما يلبسه الآن .

خيل إلى مدام دى رينال أن الساعة التى قضها جوليان فى غرفته دهر طويل ، لأن أطفالها الذين علموا بقدم معلمهم الجديد أرهقوها بوابل من الأسئلة ، وأخيراً ظهر جوليان ، فكان رجلاً آخر لم يكن رزيناً فحسب وإنما كان الرزانة بعينها . وقدم إلى الأطفال فتحدث إليهم حديثاً أذهل السيد دى رينال نفسه . وقبل أن يفرغ من حديثه قال لهم :

— لقد جئت إليكم لأعلمكم اللغة اللاتينية . وأنتم تعلمون ، ولا شك ، كيف يلقي الإنسان درساً حفظه سأستمع غالباً إلى دروسكم فاستمعوا الآن إلى درسى . هذا الكتاب الصغير الأسود هو الكتاب المقدس الذى يتحدث عن حياة سيدنا عيسى . إنه الجزء من الإنجيل الذى يسمى العهد الجديد .

ثم أعطى الكتاب أدولف أكبر الأولاد سنّاً وقال له :

— افتح الكتاب فى أى مكان ، وقل لى الكلمة الأولى فى أى جزء من الأجزاء ، وسأتلو عليك ما تشاء مما حفظت من هذا الكتاب المقدس الذى يعد مثلنا الأعلى فى الحياة ، وسأقرأ حتى تكفى أنت بما أقرأ .

ففتح أدولف صفحة ثم قرأ كلمة ، وأخذ جوليان يتلو حتى انتهى من الصفحة كلها فى يسر كبير ، كما لو كان يتحدث بالفرنسية . عندئذ ألقى دى رينال على زوجه نظرة اغتباط وقور ، ورأى الأطفال حيرة أبويهم فذهلوا كذلك . ووقف خادم بيباب الصالون ، فسمع جوليان يتحدث باللاتينية ، فأنصت لا يبدى حراكاً ، ثم غاب عن الأبصار ، ثم جاءت بعد قليل وصيفة مدام دى رينال والطاهية ، ووقفتا بالباب .

وكان أدولف حينذاك قد فتح الكتاب في ثمانية مواضع مختلفة ، وجوليان يتلو كما بدأ في سهولة ويسر ، عندئذ صاحبت الطاهية في صوت مسموع :

— آه ! يا إلهي ! يا له من قس ورع جميل !

سر السيد دى رينال ، إلا أن كرامته قد جرحت ، فأخذ يبحث في ذاكرته عن بضع كلمات لاتينية ، غير متبغ أن يمتحن معلم أولاده ، وأخيراً استطاع أن يتذكر بيتاً من شعر هوراس فأنشده . وعندئذ قطب جوليان حاجبيه ، لأنه كان لا يعرف إلا لاتينية إنجيله ثم قال :

— لقد حرم على الكهنوت أن أقرأ شعر هذا الشاعر الديوى الدنس .

وأشد السيد دى رينال مرة أخرى لهوراس ، ثم تحدث عنه لأطفاله ، لكن إعجابهم بجوليان كان بالغاً فلم يلتفتوا إلى ما يقوله أبوهم ، ولم يحولوا نظراتهم عن معلمهم الجديد .

كان الخدم لا يزالون واقفين بالباب ، فأراد جوليان أن يؤثر في نفوسهم تأثيراً عميقاً لينال إعجابهم . أكثر مما فعل ، فقال لأصغر الأطفال :

— يجب أن تقرأ كلمة من هذا الكتاب لأتلو عليك بعض الفقرات .

فازداد زهو ستانيسلاس كزافييه ، وعالج قراءة كلمة حتى أفلح بقدر ما استطاع ، فتلا جوليان صفحة

كاملة . وكان انتصار السيد دى رينال كبيراً حين دخل عليه في تلك اللحظة السيد فانو صاحب الجياد النورماندية ، والسيد شاركوذى موجيرون وكيل حاكم المقاطعة ، فسمعا جوليان وهو يتلو الإنجيل عن ظهر قلب ، فاستحق المعلم عن جدارة لقب سيد ، ولم يجروا الخدم أن يرضوا عليه به .

وفي المساء أقبل كثير من أهل فريير إلى منزل السيد دى رينال ليروا بأنفسهم هذه المعجزة الخارقة ، فكان جوليان يجيب عن أسئلتهم في إيجاز واعتزاز كبيرين ، وسرعان ما أخذ الناس يتحدثون عنه في المدينة كلها حتى ذاع صيته ، وحتى خشى السيد دى رينال أن يختطفه أحد الأغنياء ، فاقترح عليه أن يوقع عقداً بعامين ، إلا أن جوليان قال في فتور :

— لا يا سيدى ، لو أحببت أن تطردنى لخرجت على الرغم منى ، فالعقد الذى يقيدنى دون أن يقيدك بشيء عقد جائر لا أوافق عليه .

ولم يكذبمضى شهر على إقامة جوليان عند العمدة ، حتى أصبح يتمتع منه باحترام كبير ، لأنه كان يؤدى واجبه على أكمل وجه . وفسد الأمر بين القسيس الشيخ وبين دى رينال وفالانو ، فلم يعد جوليان يخشى من افتضاح سره القديم ، وهو تحمسه لنابليون ، الذى أصبح يتحدث عنه الآن في كثير من الكراهية والازدراء !

